(١٥)

هـذا أولاً ! !*

عندما قال لى إنه سئم تجـارة العملة ومـا يشـبهها مـن الأعمـال التـى يسمونها، التصدير والاستيراد، انشرح صدرى وعرفت أن الله سبحانه وتعالى قد عفا عن ذلك الرجل ومن عليه بالخير. وعندما قال لى إنـه يريـد أن يدخل فى الصناعة، وفى الصناعة العالية، آمنت بأن الله يحب مصر، لأن هذا الرجل غنى جدا. إن ثروته تصل إلى ما يقرب مـن ١٠٠٠٠٠٠٠٠ (مائة مليون) جنيه ومنها طبعا دولارات.

وعندما دعانى إلى الاشتراك معـه فـى هـذه الصناعـة قلـت فـى نفسـى ولم لا؟ أننى لا أرجو نفعا ماديا وإنما أنا أرجو نفع بلادى مصر. وإذ جـاء النفع المادى، فأهلا وسهلا ومرحبا، وإذا لم يجئ فلا بأس، وأنا على أى حال لم أعمل للمال فى يوم ما، فأنا رجل قنوع وسأظل قنوعا.

فنظرت إليه طويلا ثم قلت ما رأيك يا معلم وهـدان فـى أننـى مستعد للاشتراك معك أو معكم والاتكال على الله قال لى أما وقـد فتـح الله قلبـك للاشتغال معنا فسأصارحك بكل شىء.

وكنت قد طلبت له شايا فأخذ منه رشفة ثم قال: الحقيقة أننى كنـت لا أثق فى كلامك ولا أومن بما تدعو إليه من انصراف الناس عن التصديـر والاستيراد والتجارة المطلقة بغير حدود بما فى ذلك تجارة العملة.

ولكن الحظ الذى يكتبه لنا الله أراد أن ألتقى فى إيطاليا مع رجل مـن السويد كان يعمل مع الإيطاليين، ثم غدروا به، واضطر إلى الاستقالة من العمل، وهذا الرجل كان من حسن حظنا مـن الذيـن يعملـون فـى صناعـة الموتورات، أى أنه كان اختصاصيا فى ذلك الفن، ونظرا إلى أن الإيطاليين

---

* نشرت هذه المقالة فى ٧ يناير ١٩٩٠م.

خدعوه فقد كان ميالا إلى معاونتنا وعلى فكرة لابد أن تعرف أنه لا الإيطاليون ولا الفرنسيون أو الإنجليز مستعدون لمعاونة أى بلد من البلاد الفقيرة فى معرفة أصول الصناعة الكبيرة. إنهم مستعدون لمعاونتنا فى الشكليات والصناعات الصغيرة كصناعة البسكويت والمواسير بشتى أنواعها بما فى ذلك الأدوات الصحية بكل أشكالها ومستوياتها لأن هذه كلها أعمال لا تصل بالدول إلى مستوى الدول الصناعية حقا.

المهم أن ذلك الرجل أقصد السويدى أخلص لنا وصدقنا انتقاما من الإيطاليين، فقال لى.

هل أنت واثق أن معك النفقات اللازمة لإنشاء صناعة الموتورات فى مصر. لعلك لا تعرف أن الموتور ومهما كان مستواه يتكون اليوم من ١٠٠ قطعة بعضها من معادن صريحة معروفة كالحديد والنحاس والبرونز وبعضها تركيبات معدنية لبعض أجزاء الموتور، والموتور يتكون من تيارات كهربائية وتيارات مغناطيسية وتيارات كهرومغناطيسية؛ فإذا كنتم تريدون أن تدخلوا فى صناعتها فلابد أن تعرفوا كله ذلك وتكونوا مستعدين للانفاق بسخاء.

قلت نعم نحن مستعدون.

وقبل أن يستمر فى الكلام نظرت إليه وقلت والآن ما دخلى أنا فى ذلك كله؟.

فرشف رشفة كبيرة من الشاى وقال لى نريدك يا سيدى أن تعمل معنا.

قلت أنا مستعد للعمل معكم لأن العمل فى هذه الحالة خدمة لمصر، ولكن ماذا أعمل.

قال: يا سيدى أنت اسم معروف ولك قيمة، وكل ما نريده هو أن تكون مستشارا لرئيس مجلس الإدارة وأن تتدخل لدى الدولة لتنفيذ أعمالنا.

ففكرت طويلا ثم قلت له على بركة الله.

قال: نكتب عقدا.

قلت له: وما قيمة العقود فى بلد ترفع فيه القضية اليوم ولا يصدر الحكم فيها إلا بعد خمس سنوات أو ست، وإذا صدر لم يكن حاسما ولا محدد القواعد.

قال: يا سيدى لقد بينت لك حدودك، وأنا وزملائى مقتنعون بأنك تستطيع معاونتنا.

قلت: إن شاء الله.

قال: نعطيك ألفى جنيه فى الشهر.

قلت: يحدد هذا فى العقد.

قال: طبعا.

□□□

وبالفعل أخذتنى الحماسة وأخلصت فى العمل وكان هو وزملاؤه أغنياء جدا وسافرت مع صديقى إلى السويد ولقيت ذلك السويدى وأيقنت أنه مخلص وفى اجتماعنا معه قال لنا: إنكم لن تستطيعوا صناعة الموتورات إلا بعد سبع سنوات على الأقل، ومعنى ذلك أنكم فى كل سنة تعملون السبع بحيث فى نهاية السنوات السبع تستطيعون انجاز صناعة الموتورات، ولكى توقفوا فى ذلك فأنا أريد أن ترسلوا لى هنا عددا من شبابكم المهندسين والفنيين ليتعلموا أصول هذه الصناعة المعقدة..

هنا أيضا كان تدخلى لأننى حرصت أشد الحرص على أن يكون اختيار الشبان الذين سيذهبون إلى السويد اختيارا سليما أى على أساس الكفاءة، وبالفعل اخترنا كدفعة أولى عشرين شابا من خيرة شباب مصر، وكانوا جميعا متحمسين ومؤهلين فنيا، وقد تولى تدريبهم وتحديد اختصاصاتهم ذلك الرجل السويدى الذى كان يعمل معنا واجتهدنا فى أن ننشىء فى السنة الأولى الأجزاء البسيطة التى تصنع من معادن واضحة وصريحة كالحديد والنحاس والألمنيوم والبرونز.

□□□

ولكن المشكلة الحقيقية كانت موظفى الحكومة، وهؤلاء الناس يا أخى ليست لديهم أى فكرة عن صناعة أو عن وطن.. وكل منهم يتصرف على أن الدنيا خلقت له وحده وأن مهمته هو أن يكسب لنفسه ويعيش دون أن يتأثر بغلاء الأسعار أو بأى مشكلة فى مصر، وأن يشترى لنفسه شقة وكذلك لأبنائه وبناته وكانت مهمتى الرئيسية كما قلت لك وبحسب ما حددته الشركة هى أن أقابل كبار المسئولين وأحصل منهم على الموافقات على مطالب الشركة، والحق أننى لم أجد أى صعوبة من الوزراء فكل وزرائنا أفاضل وأكفاء ومخلصون لمصر، وكلهم يتبعون فى ذلك رئيسنا المجيد محمد حسنى مبارك الذى يرفع فى مصر شارات الشرف والوطنية والصدق والفضائل، ويمثل فى عالم العرب الصداقة والأخوة التى يئس العرب منها فعادت اتحادات الأخوة والعمل واختفت مظاهر الجامعة العربية التى لا يخرج نشاطها عن الكلام وعقد الاجتماعات وتحمل نفقات الرحلات والاقامات وبدلات السفر وإصدار توصيات لا ينفذ منها شىء.

وكانت مهمتها الرئيسية تنتهى عند مقابلة الوزراء والحصول على موافقاتهم والحق أنهم أعطونا ألفى فدان من الأرض الصحراوية واستصلحناها وأعددناها لتكون مدينة صناعية وبحسب إشارة مستشارنا السويدى الذى كان راتبه ثلاثة آلاف دولار فى الشهر.

ولكن مشكلتنا الكبرى كانت كما قلت لك الموظفين الصغار أى ما هو تحت الوزراء وأحيانا تحت وكلاء الوزارات.

هؤلاء أرهقونا فعلا.. وأنا لم تكن مهمتى الاتصال بهم.. كان هذا عمل زملائى الذين كانوا قبلا أصحاب شركات استيراد وتصدير، ولكن عملهم الرئيسى كان الاتجار فى العملة ويكفى أن أقول لك إن بعضهم كان يشترى المائة دولار بـ ٣٥٠ جنيها مصريا أحيانا والآن يخلصون لمصر ويجتهدون فى انشاء صناعة الموتورات بادئين بالموتورات الصغيرة أى من ١/٤ك إلى ٢ك وهذا هو طراز الموتورات المطلوب بكثرة جدا فى بلادنا

وأحب أن أضيف لك أن الذين يشترون الدولار بمبلغ ٣٥٠ قرشا هم الذين يقومون بصناعات للأطفال والأولاد، لأن الولد لا يهتم الا بأن يحصل على ما تشتهيه نفسه من البسكويت والشيكولاته والحلوى واللولى بوب واللبان وما إلى ذلك أنا لا أقول لك إن البسكويت مثلا غير مهم وكلنا نحتاج إليه وهو صناعة عظيمة ولكن الكبار إذا وجدوا أن سعره غال اقتصدوا منه أما العيل فلا يهمه سوى الحصول على ما تهفو إليه نفسه وفى المدارس خاصة يتزاحم الأولاد على ذلك بدافع الغيرة من زملائهم، وهم يرهقون أباءهم فى الحصول على النقود، وكلنا نعرف أن الأولاد قلما يفكرون فى متاعب الآباء..

□□□

فى السنة الثالثة بدأنا نعمل ٧/١ الموتور، وكنا قد أنشأنا فعلا مدينة صناعية وأقمنا الساكن والأسواق للذين يعملون عندنا وبانت مظاهر النجاح.

هذا النجاح أثار غيره فى نفوس الموظفين، وأبسط ما كانوا يرهقوننا به هو اصرارهم على أن يدخل أولادهم صناعا فى الشركة مع قلة كفاءتهم، فإذا أنت لم تقبل ابن الواحد منهم وتهيئ له الوظيفة المحترمة والمسكن الجميل فى المدينة الصحراوية انقلب عليك وأصبح عدوا لك ودولتنا دولة أوراق وتوقيعات، وإذا توقف واحد منهم عن الإمضاء على ورقة توقفت أعمالك كلها، وإذا أنت وافقت على قبول ابنه أصر على أن تأخذ أيضا زوجة ابنه، وغالبا ما تكون متخرجة فى مدرسة صناعية متوسطة، ولكنه يريدها مهندسة بمرتب لا يقل عن مائتى جنيه فى الشهر وهكذا أقول لك انك يا صديقى لا تستطيع أن تنهض بالبلاد النهضة المطلوبة مادام هذا الطراز من الموظفين موجودا.

المهم أن زملائى فى الشركة وقد قلت لك إنهم كانوا تجار سوق سوداء قبل ذلك ثم انصلح جالهم ليسوا بأسوأ من أولئك الموظفين الذين ثبت فعلا أنهم أسوأ من فى مصر وإن كانوا يزعمون أن كل ما يريدونه هو أن يعيشوا وأن يعيش أولادهم.

المهم أننا عندما وصلنا فى السنة الخامسة ونحن ننفق فى مصر والسويد لم نكن قد وفقنا إلى صناعة ٧/٢ من صناعة الموتور، وقد هلك زملائى فى الجرى وراء أولئك الموظفين.

وأخيرا جاءنى صديقى وهدان فى ذات يوم وقد بان اليأس على وجهه.

وقال لى: يا صديقى من المستحيل العمل هنا ما دامت الظروف هكذا، أريد أن أقول إن صناعة الموتور مثل صناعة الساعات والصناعات الدقيقة الشريفة تحتاج إلى أنفس شريفة وما لم توجد هذه النفوس فلا فائدة، ونحن سنكتفى بما وصلنا إليه الآن أى أننا نصنع ثلاثة أسباع الموتور ونبيعها أجزاء لمن يحتاج إليها، وهناك الكثيرون من الناس مستعدون لشراء هذه القطع ولكننا نحن يئسنا ولن نستطيع أن نستمر فى صناعة الموتور.. معنى ذلك أنكم لم تعودوا تحتاجون إلى فهز رأسه وقال: هذه هى النتيجة الحقيقة يا صديقى ومرتبك فى الحقيقية لا يتعبنا فأنا لى بضعة ملايين فى شهادات الاستثمار وآخذ منها فلوسا ولكن المهم هو أن أقول لك بدلا من أن تكتب كل أسبوع تنصح وتوجه أنه أحسن لك أن تبحث عن طريقة أخرى لكى تقنع أصدقاءك الوزراء بأن ينظروا فى أمر أولئك الموظفين وأن ينقذوا البلد من أنيابهم الحامية ففكرت طويلا ثم قلت:

ها أنتم أولاء تسمعون يا سادتى الوزراء ما يقوله ذلك الرجل وأنا الآن معه وأقول لكم إنه لابد لنا من نوع آخر من الموظفين يحبون مصر حبا

حقيقيا ويفهمون ما نريد، ونحن لا مانع عندنا من أن يكونوا شركاء فى الشركات.. أن تكون فلوسهم معنا وأن يسير العمل بإيمان وذمة ونشاط ومصر لابد أن تنهض صناعيا لأنها بلد صناعية، ونحن نقول إن الصانع المصرى ممتاز ولكن اضيف أن الامتياز وحده لا يكفى لابد من اتساع الذهن والقلب لابد من الذمة والضمير.

لأن مصر لابد أن تصل إلى ما تطمح إليه.. قلت فعلا، هذا أولا.